المحاضرة السابعة: نظرية تباين الفرص.

ترجع جذور نظرية الفرصة المتباينة إلى مقالة كتبها "كلوارد" عام 1959، وتعد النظرية كما طرحها فيما بعد " كلوارد و أوهلن" 1960 محاولة للاستفادة من نظرية "ميرتون" عن الأنومي التي تهتم بتحديد المصادر الاجتماعية للانحراف، ونظرية "سذرلاند" عن المخالط الفارقة التي تهتم بكيفية انتقال السلوك المنحرف إلى الأفراد والجماعات من خلال عملية التعلم، وتهتم هذه النظرية بصفة أساسية بتفسير ظهور الجماعات الجانحة في الطبقات الدنيا، والعوامل المؤدية إلى ظهور أنماط مختلفة من الثقافات الخاصة الجانحة.

وينحصر اهتمام هذه النظرية بالدرجة الأولى بأحداث الطبقة الدنيا ذوي القدرات والمهارات العالية التي تمكنهم من الوصول وتحقيق الأهداف والقيم التي ينادي بها المجتمع _ وخاصة طبقته الوسطى_ من امتلاك واستهلاك السلع الفاخرة، وتحقيق أكبر قدر من الاشباع وأعلى مستوى من النجاح، ولكنهم بالرغم من مهاراتهم وقدراتهم المرتفعة فإنهم عاجزون عن بلوغ تلك القيم وتحقيق هذه الأهداف، وذلك لأن المجتمع لا يتيح الفرص بدرجة متساوية وعادلة أمام جميع أفراده.

وإذا كانت نظرية الأنومي عند "ميرتون" قد ذهبت في تفسيرها للسلوك المنحرف إلى أن التناقض بين الأهداف التي تقول بها ثقافة المجتمع، وبين الوسائل المشروعة لتحقيقها يؤدي إلى ظهور أنماط من الاستجابة المنحرفة، فإن نظرية الفرصة المتباينة عند "كلوارد وأوهلين" تضيف بعدا آخر وهو مدى توافر الفرص أمام بعض الجماعات التي تشغل أوضاعا معينة في البناء الاجتماعي لتحقيق أهدافها بالوسائل المنحرفة، فنظرية الفرصة المتباينة تتضمن بعدين أساسين هما:

1_ مدى توافر الفرص المتاحة لاستخدام الوسائل المشروعة والمقبولة اجتماعيا لتحقيق الأهداف.

2_ مدى توافر الفرص المنحرفة لتحقيق الأهداف.

ويتعلق البعد الأول بمدى توافر الفرص المشروعة لتحقيق الأهداف، وهو مستمد من نظرية الأنومي، ويتعلق البعد الثاني بمدى توافر الفرص المنحرفة المتاحة لتحقيق الأهداف، متضمنا الجماعات والأنماط السلوكية المنحرفة المستمدة من نظرية المخالطة الفاصلة.

يقرر "كلوارد وأهلين" أن شكل الثقافة الخاصة الجانحة يعتمد على درجة التكامل الموجود في المجتمع، وبالتالي ذهبا إلى أنه بدون وجود بناء إجرامي مستقر فإن أحداث الطبقة الدنيا لن تكون أمامهم فرصة كبيرة للنجاح في الحياة من خلال استخدام الوسائل الإجرامية، أكثر مما كانوا يستطيعون تحقيقه من خلال استخدام الوسائل المشروعة، فلن يكون هناك "مهنة إجرامية" أو "عمل تجاري اجرامي" يمكن الانضمام إليه، ولا طريق لتعلم السلوك الاجرامي الصحيح، ولا وسيلة لأن يصبح الفرد مجرما محترفا.

وتذهب نظرية الفرصة المتباينة في تفسيرها للسلوك المنحرف إلى أن شباب الطبقة الدنيا في المناطق الحضرية يعيشون في عالم من انفصال كبير بين الآمال والأهداف وبين الفرص المشروعة المتاحة لتحقيق وبلوغ تلك الآمال والأهداف، مع وجود فرص منحرفة –في نفس الوقت– متاحة لشباب هذه الطبقة المحرومة لتحقيق هذه الأهداف، فالانفصال بين ما يرغب فيه شباب الطبقة الدنيا، وبين ما هو متاح من وسائل مشروعة يعد المصدر الأساسي لمشكلة التكيف.

ويذهب "كلوارد واهلين" إلى ذلك التناقض بين الأهداف ينتج نوعين من الحلول هما:

1_ الحل الجمعي (الجماعي)

2_ الحل الفردي.

فإذا كان فشل الأفراد في تحقيق أهدافهم مرتبطا بالبناء الاجتماعي، أو يرجع إليه بسبب نقص الفرص، فمن المحتمل أن يسعى الأفراد إلى البحث عن حل جمعي (جماعي)، ويتمثل ذلك الحل في الثقافة الخاصة الجانحة.

أما إذا اتسم الفشل في تحقيق الأهداف بالطابع الفردي، فإن الفرد يبحث حينئذ عن حل فردي لمشكلته، وفي ضوء ذلك تربط نظرية "كلوارد وأهلين" بين عناصر أربعة هي:

1_ نسقا الفرص المتباينة (المشروعة– المنحرفة).

2_ تحقيق الأهداف من خلال الوسائل المشروعة، ما يؤدي إليه الفشل في تحقيها من احباط.

3_ ظهور الثقافة الخاصة الجانحة كحل جمعي لمشكلة الاحباط.

4_ استخدام الوسائل المنحرفة لتحقيق الاهداف.

وهنا تبرز نقطتان أساسيتان هما:

1_ تقسيم الثقافة الخاصة الجانحة إلى ثلاثة أنماط رئيسية هي: الاجرامية والصراعية والانسحابية، ويمثل كل نمط مشكلة خاصة مع النظام، وبينما ينتشر النمط الصراعي والانسحابي في مناطق الطبقة الدنيا، فإن النمط الاجرامي يوجد في مناطق الطبقة الوسطى، بالإضافة إلى وجوده في مناطق الطبقة الدنيا، على أن انتشار الأنماط الثلاثة للثقافة الخاصة الجانحة في مناطق الطبقة الوسطى أمر لم يتحقق منه حتى الأن.

2_ هناك تأكيد قوي من جانب "كلوارد وأوهلين" على مدى توافر الفرص كعامل هام في ارتكاب السلوك المنحرف، ويبدو ذلك في محاولة الربط بين نظرية الأنومي، ونظرية المخالطة الفاصلة.

ويذهب "كلوارد وأوهلين" إلى أن الثقافة الخاصة الجانحة تتضمن أنماطا معينة من الأفعال الجانحة تعد من المستلزمات الضرورية للتوافق مع الأدوار التي تتضمنها الثقافة الخاصة، الأمر الذي يجعل من نمط الجناح المتعلق بالثقافة الخاصة الجانحة أكثر خطورة من أنماط الجناح الأخرى.

وقد حدد "كلوارد وأوهلين" ثلاثة أنماط من الثقافة الخاصة الجانحة وهي:

_ الثقافة الخاصة الاجرامية.

_ القافة الخاصة الصراعية.

_ الثقافة الخاصة الانسحابية.

1_ الثقافة الخاصة الاجرامية: يتطلب استمرار الثقافة الخاصة الجانحة تأييدا وتعزيزا من البيئة، وتوفر نمط تكاملي بين المجرمين، وبين مستويات السن المختلفة للمجرمين، نظرا لأن عملية تعلم السلوك الاجرامي واكتساب المهارات والخبرات الاجرامية تتضمن مجموعة من أنماط العلاقات يتم من خلالها نقل وتعلم الخبرات من مستوى سن إلى مستوى سن أخر، ويذهب "كلوارد وأوهلين" إلى أنه بين الطبقات الدنيا غالبا ما توجد أمثلة ناجحة لنماذج السلوك الاجرامي، حيث يعد كبار المجرمين سمة ظاهرة وناجحة تدفع الشباب إلى الاحتذاء بهم والتقرب إليهم، وفي نفس الوقت يرغب كبار المجرمين في إقامة علاقات ودية مع هؤلاء الشباب.

على أنه يجب التأكيد على أن عملية التعلم بمفردها لا تعني أن الفرد يستطيع أن يمارس بنجاح الدور الذي تم تدريبه عليه، فالبناء الاجتماعي يجب أن يتيح ويقدم الفرصة لممارسة هذا الدور، كما أن الأدوار الاجرامية لا يمكن أن توجد أو تستمر إذا لم يكن هناك ترابط وتفاعل بين حملة الثقافة الاجرامية وحملة الثقافة التقليدية، حيث أن هناك نسقا من العلاقات المعقدة المتبادلة بين المجرمين والأسوياء يؤدي إلى قيام الثقافة الخاصة الجانحة.

2_ الثقافة الخاصة الصراعية: تتميز الثقافة الخاصة الصراعية بالعنف، فالمكانة في المجتمع يتم تحقيقها من خلال استخدام القوة، أو على الأقل التهديد باستخدامها، ويؤدي استخدام العنف إلى تعريض حياة أفراد المجتمع للخطر، وتعريض ممتلكاتهم للتلف والتدمير، ولذلك فإن الثقافة الخاصة الصراعية تعد من أخطر أشكال الثقافة الخاصة الجانحة، نظرا لما يترتب عليها من أخطار وأضرار تهدد حياة أفراد المجتمع وممتلكاتهم.

ويرى "كلوارد وأوهلين" أن المناطق المنهارة سيئة التنظيم تعد بيئة مناسبة وصالحة لظهور وانتشار الثقافة الخاصة الصراعية، فعندما يسود المجتمع حالة من التفكك وسوء التنظيم فإنه لا يتيح لأفراده بصورة متساوية وعادلة الوسائل المشروعة لتحقيق أهدافهم، الأمر الذي يترتب عليه لجوء الأفراد إلى الثقافة الخاصة الاجرامية لتحقيق أهدافهم، ولكن نظرا لاتسام تلك المناطق بالتفكك فلا توجد بها أنساق الفرص الاجرامية لعدم وجود تكامل بين مستويات السن المختلفة للمجرمين، وأيضا عدم وجود تكامل بين حملة القيم الاجرامية وبين حملة القيم التقليدية، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى ظهور الثقافة الخاصة الصراعية.

وكما فشلت تلك المناطق تلك المناطق المنهارة في إقامة تنظيم اجتماعي شرعي يتيح للأفراد تحقيق أهدافهم، فإنها أيضا تفشل في إقامة نسق إجرامي مستقر لافتقارها إلى نسق تعليم السلوك المنحرف ونسق الفرصة لارتكاب ذلك لسلوك المنحرف، كما أن تلك المناطق غالبا ما تضم المنبوذين من عالم الجريمة، ولا يعني ذلك أن الجريمة لا توجد في تلك المناطق، ولكن الجريمة هنا هي الجريمة الفردية العشوائية التي يقضي مرتكبها معظم حياته في السجن فالجريمة مثل أي مهنة أو عمل تجاري لا تستمر ولا تقوى إلا في المناطق المستقرة والمتكاملة، وبالتالي فإن المناطق المنهارة التي يسودها سوء التنظيم وعدم الاستقرار لا تصلح كموطن آمن للمستقبل الاجرامي، وهنا لا تعد الثقافة الخاصة الصراعية نتيجة لشعور الشباب

في المناطق المنهارة بالإحباط والحرمان من الفرص التقليدية المشروعة فقط، ولكن أيضا من الفرص الاجرامية.

3_ الثقافة الخاصة الانسحابية: تتميز باتجاه أعضائها نحو الانعزال عن المجتمع، وعدم ممارسة أي سلوك إيجابي داخل المجتمع، وعادة ما يتسمون باللامبالاة وعدم الاهتمام بما يدور حولهم، كما ينتشر بينهم تعاطي المخدرات وتناول المشروبات الكحولية.

ويعد الحصول على المخدرات واكتساب الخبرة في تعاطيها من العوامل الدافعة إلى تكوين الثقافة الخاصة الانسحابية، وبالرغم من قوة هذه العوامل الذاتية فإنه عادة ما تكون الروابط بين المتعاطين ليست على نفس القدر من قوة التماسك الموجودة بين أفراد الثقافة الخاصة الاجرامية، ولعل ذلك يرجع إلى أن الادمان في حد ذاته يعد أحد حالات التكيف الفردي.

ويلاحظ بصفة عامة أن نمط السلوك الانسحابي ورد بنظرية الأنومي، ونظرية الفرصة المتباينة، إلا أن هناك فرقا بين نمط الاستجابة الانسحابية عند "ميرتون" ونمط الثقافة الخاصة الانسحابية عند "كلوارد وأوهلين" ، فبينما أرجع "ميرتون" أسباب الاستجابة الانسحابية بصورة مباشرة إلى التناقض بين الأهداف والوسائل، ذهب "كلوارد وأوهلين" إلى أن الثقافة الخاصة الانسحابية لا توجد إلا إذا فشل الفرد في انتهاج السلوك الاجرامي لتحقيق أهدافه، فالثقافة الخاصة الانسحابية هنا ليست نتيجة مباشرة للتناقض بين الأهداف ووسائل تحقيقها بالطرق المشروعة، ولكن للتناقض أيضا بين الأهداف ووسائل تحقيقها بالطرق الاجرامية.

ومن ذلك يتضح أن فشل الفرد في تحقيق الأهداف من خلال استخدام الوسائل الاجرامية يجعله أمام اختيارين: إما أن ينتهج سلوكا يتسم بالعنف وينضوي تحت لواء الثقافة الفرعية الصراعية، أو ينسحب من المجتمع مفضلا البقاء في ظل الثقافة الخاصة الانسحابية.

النقاط الأساسية للنظرية:

1_ يشترك أفراد المجتمع في مجموعة مشتركة من القيم التي تركز على أن وجود أهداف معينة في الحياة مرغوبة ثقافيا.

2_ توجد وسائل معيارية لتحقيق هذه الأهداف، وهي وسائل مشروعة وغير مشروعة.

3_ لا تتاح الوسائل المشروعة وغير المشروعة بصورة عادلة لكل جماعات وطبقات المجتمع.

4_ عادة ما تكون الأولوية لأفراد الطبقات الوسطى والعليا في بناء الفرصة المشروعة (العمل والسياسة)، بينما تكون الأولوية لأفراد الطبقات الدنيا في بناء الفرصة غير المشروعة (الجريمة المنظمة).

5_ في أي منطقة حضرية للطبقة الدنيا تحدد درجة التكامل بين هذين البناءين للفرصة التنظيم الاجتماعي للمجتمع، فكلما قلت درجة التكامل كلما تميز المجتمع بالتفكك.

6_ توفر المجتمعات ذات التنظيم الجيد– والتي تتكامل فيها بناءات الفرصة غير المشروعة– بيئة خصبة لتعلم السلوك الاجرامي المنظم، وفي مثل هذه المجتمعات تتخذ الثقافة الخاصة الجانحة للذكور أحد شكلين، ويتوقف ذلك على درجة الاتصال بالبناء أو التنظيم غير المشروع أو الاقتراب منه:

أ) عندما تكون فرصة المشاركة الناجحة في البناء غير المشروع متاحة أمام الشباب صغير السن فإن نمط الثقافة الخاصة للجماعة يتخذ في الغالب شكل العصابة الاجرامية، يتم داخلها التدريب على ممارسة السلوك الاجرامي.

ب) عندما تكون فرص انضمام الشباب صغير السن إلى البناء غير المشروع محدودة فإن الشكل الغالب من الثقافة الخاصة هو الانسحابي، وينسحب أفراد هذه الثقافة الخاصة الانسحابية من المجتمع ويعانون من الفشل المزدوج، ويحل هؤلاء الأفراد مشكلتهم من خلال تعاطي المخدرات.

7_ تتميز المجتمعات المفككة بضبط اجتماعي ضعيف، وثقافات خاصة جانحة مفككة، يغلب عليها الشكل الصراعي، وينخرط أفراد الثقافة الخاصة الصراعية في ارتكاب أعمال العنف، والتدمير والتخريب ضد كل من بنائي الفرصة (المشروع وغير المشروع)